



الحرف اليدوية في طرابلس:

أصالة ورقي بين التراث والحداثة



من أعمال النقش على النحاس

بيوتها المعلقة فوق الدروب ترسم ظللاً على طريق مسقوف بأقبية وعقود، تتطلع إلى مسجد أو مدرسة، أو تُفضي إلى حمام أو خان عبر منعطفات زينتها البوابات بمقرنصاتها، وأطلت عليها المشربيات الخشبية، وتدفقت مياه بركة مترققة، تعزف لحناً شجياً مع نسמת عليلة تنقلك إلى ساحة تتفرّع منها أسواق تنبض بالحركة، تنتهي إلى أدراج عليّة تُشرف منها على قبابها الخضر وقرميد بيوتها الأحمر: لوحة رائعة في سيمفونيا جميلة يعزفها ابن طرابلس صباح مساء، ويعيش داخل صروحها باعثاً فيها حياة دائمة.

فالباعة في دكاكينهم يختلط نداؤهم على بضائعهم بأصوات
الأولاد اللاهين في الأزقة، وتتعالى طرقات النحاسين وهم
يفرغون على التحف النحاسية أقوالاً مأثورة، ويتناهى إلى
الاسماع إيقاع أطباق بائع السوس وفناجين بائع القهوة، ويعبق
شذا العطارين مع رائحة الصابون البلدي، وطبق الحلويات
الشهي.

حرفيو طرابلس حملوا اسم لبنان إلى مختلف أنحاء العالم،
ولازلت حرفهم أصيلة بأصالة مبدعيها (آبائهم وأجدادهم)، طوّعوا
بيئتهم وما تنتجه من مواد أولية إلى منتج عملي جميل ذي رونق
يعبر عن ذوق مرهف وحسّ اقتصادي، ظلّ قرونًا يُنتج كما لو أنه
منتج كامل لا يحتاج إلى تطوير وتعديل.

عالم الحرفيين تغمره حرارة العلاقات الانسانية، فالحرفي ذو
مهارات ولمسة إنسانية خاصة يستحيل على الإنتاج الصناعي أن
يؤمنها، وذو علاقة خاصة بمواد أولية أقرب ما تكون إلى المواد
الطبيعية. فالخشب والقطن والقصب والصوف والفخار والحجر
والمنتجات الزراعية الطبيعية مواد يتعامل معها ويعرف قيمتها
المستهلك إذ قامت عليها الحضارات البشرية منذ فجر التاريخ.

وكما في مدن العالمين العربي والاسلامي، شيد الممالك
أسواق طرابلس بما يتفق والتجمعات الحرفية وسياسة تنظيم
المدينة حول جامعها الرئيس، الجامع المنصوري الكبير، فكان لكل
حرفة سوقها الخاص المعروف باسمها. وخلال تجوالنا اليوم في
أحياء المدينة القديمة نجد أسواقها مازالت تحمل اسم الحرفة

التي اشتهرت بها، بعضها فقد الحرفة وحافظ على اسمها فقط، بينما بعضها الآخر مازال يحوي دكاناً أو أكثر ليمارس حرفته التقليدية.

هذه الأسواق والخانات تتوزع في أرجاء المدينة: قرب الجامع المنصوري الكبير سوق الصاغة وسوق العطارين وخان الصابون، قرب جامع الأويسية سوق البازركان (بائعو القماش) وخان الخشب وسوق الكندرجية (صانعي الأحذية)، قرب حمام عز الدين سوق النحاسين وخان الخياطين وسوق الحدادين ودكاكين صانعي قوالب الحلوى الخشبية وكراسي القش والقصب، قرب خان العسكر سوق الدباغين وسوق الملاحة وسوق حراج، وفي محلة التربيعة محلات النجارة العربية وصناعة الموبيليا ومبيضي النحاس والمنجدين والتنكجية (صناعة التنك)، والصابون في خان المصريين. وفي محلة الزاهرية مصابن كبيرة (لتصنيع الصابون البلدي المكعب) أقيمت عن نهاية القرن التاسع عشر كمصينتي عويضة وعدرة، ومحلات الحلويات الطرابلسية ذات الشهرة العالمية تنتشر في أنحاء المدينتين القديمة والحديثة.

على ساحل طرابلس، في مدينة الميناء، تطورت الحرف المرتبطة بالصيد، كصناعة المراكب الخشبية والسفن، وحياسة الشباك واستخراج وتصنيع الاسفنج، وصناعة الأواني والتحف الفخارية.

هذه هي طرابلس الفيحاء، مدينة الأصالة والرقى، الجامعة
بين التراث والحداثة، أسواقها تنبض بالحياة منذ قرون، لذا
استحقت لقب "المتحف الحي".